سلسلة معرفة الله (٣ ـ ١٥)

دروس من هدي القرآن الكريم

معرفة اللّٰه ـ نعم اللّٰه

الدرس الثالث

ألقاها السيد/ حسين بدر الدين الحوثي

بتاريخ: ٢٠٠٢/١/٢٠م

اليمن ـ صعدة

هذه الدروس نقلت من تسجيل لها في أشـرطة كاسيت، وقد ألفيت ممزوجة بمفردات وأساليب من اللهجة المحلية العامية.
وحرصاً منا على سهولة الاستفادة منها أخرجناها مكتوبة على هذا النحو.
والله الموفق.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين.

ما يزال الكلام حول موضوع نعم الله العظيمة على الإنسان ، نعم الله علينا، قال الله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (غافر:٦٥).

إتماماً للموضوع الذي ذكرناه بالأمس ، عدة آيات من كتاب الله الكريم تتحدث عن نعم الله الواسعة ، نعم الله الواسعة التي تشمل كل شيء يتقلب فيه الإنسان في هذه الدنيا ، تشمل كل شيء، ما يشاهده في هذه الدنيا؛ لأن الله سخر للإنسان ما في السموات وما في الأرض ، فتسخيره سبحانه وتعالى للإنسان ما في السموات وما في الأرض هو من نعمه العظيمة أيضاً.

عرفنا علاقة التذكير بالنعم بمعرفة الله وتأثيرها الكبير في خلق معرفة واسعة لدى الإنسان بربه ، وتأثيرها العظيم في وجدانه، بحيث ينشد إلى إلهه فيحبه ويعظمه، ويشعر بعظيم إحسانه عليه، فيشكره ، ونلاحظ أن من العجيب أن الله سبحانه وتعالى ـ وهو أكرم الأكرمين ـ هو من ذكّر الإنسان في القرآن الكريم بنعمه الواسعة عليه، وتمنن عليه بما أسبغ عليه من نعمه ، وطلب منه أن يذكرها ويتذكرها كنعم منه سبحانه وتعالى عليه.

في الوقت الذي نجد أن هذا غير مسموح للإنسان نفسه، فيما يتعلق بالإنسان الآخر أي: فيما بين الناس {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى} (البقرة: من الآية٢٦٤) الإنسان الذي يعطي إنساناً آخر لا يجوز له أن يمنّ عليه بما أعطى فيظل دائماً يذكره بأنني فعلت معك كذا، وأنا أعطيتك كذا، وأنا عملت لك كذا ، هذا يبطل أجر الصدقة، بل يتحول الموضوع إلى معصية..فلماذا؟ ما هو الفارق؟.

الله يتمنن علينا بنعمه ، ويعددها علينا ، ويذكّرنا بها ، ويطلب منا أن نتذكر ما أنعم علينا به، وفي ما بيننا إذا ما أعطى أحد أحداً لا يجوز له أن يمنّ عليه بما أعطى، ولا أن يعدد نعمه عليه ، ولا، أنا فعلت لك كذا، وكذا.. إلى آخره. الفارق كبير جداً.

النعم التي يسديها الله سبحانه وتعالى للإنسان لها علاقة كبيرة بمجالات متعددة فهي من جهة من مظاهر قدرة الله سبحانه وتعالى ، وهي من جهة أخرى من مظاهر حكمة الله تعالى ، وهي من جهة أخرى من مظاهر رحمته تعالى ، وهي أيضاً من دلائل رعايته تعالى للإنسان ، وهي في نفس الوقت من مفردات هذا العالم الذي يتقلب فيه الإنسان ، هذا العالم الذي استخلف الله الإنسان فيه فجعله خليفة له في هذه الأرض.

نعمه تعالى هي نفسها الآليات التي بها تطيع ، والتي بها أيضاً تعصي ، فهي ذات علاقة كبيرة جداً بدور الإنسان في هذه الدنيا كخليفة لله في أرضه باعتبارها مفردات هذا العالم ، فهنا تبدو قضية مهمة جداً بالغة الأهمية.. بالغة الأهمية أن يتذكر الإنسان أن ما هو فيه هو نعمة من ربه عليه ، أن يتذكر بأنها من نعمة الله عليه ، أن يتذكر الناس بأن ما هم يتقلبون فيه هو نعمة من الله عليهم ، هذه لها أثرها المهم ، فمتى ما غاب هذا الشعور: تذكر أنها نعم إلهية من الله عليهم ، تظهر سلبيات كثيرة جداً ، فمثلاً حينما تتذكر بأن الله هو الذي أعطاك سمعك ، وأعطاك بصرك ، وأعطاك حواسك كلها ، منحك صحتك ، وأنك تعرف أن هذه هي الآليات التي بها تطيع الله ، وقد تتصرف بها تصرفاً خاطئاً فتعصي بها الله الذي منحك إياها وكرّمك بها ، وتفضل عليك بها .

تتذكر أن بصرك هو نعمة من الله كبيرة ، ولهذا من منا مستعد أن يبيع إحدى عينيه بمليون دولار؟. هل أحد يرضى؟. لا أحد يرضى حتى ولو لم يكن يملك عشاء ليلة واحدة. فهذه الأعين وسيلة الإبصار المهمة بها تشاهد مظاهر قدرة الله ، مظاهر حكمة الله ، مظاهر رعاية الله ، تشاهد بها الأشياء الكثيرة التي تعمق إيمانك وتوسع معرفتك تشاهد الأشياء الكثيرة المرتبطة بشئون حياتك ، بها تستطيع أن تتقلب في حياتك في مختلف الأعمال لتوفر لنفسك كل متطلبات حياتك.

البصر مهم جداً جداً ، إذا فقد الإنسان بصره عاش مسجوناً في هذه الدنيا كأنه سجين ، تذكّر دائماً بأن بصرك نعمة عظيمة من الله عليك ، إذاً فاستحِ من الله ، استحِ من الله أن تعصي ربك بالنعمة نفسها التي تفضل بها عليك ، وأنت تعلم بأنك في أمس الحاجة إليها ، إستحِ منه أن تقلبها في ما حرم الله عليك من النظر المريب إلى

النساء ، من النظر إلى كل ما حرم الله النظر إليه ، ثم هكذا بالنسبة لسمعك ، ثم هكذا بالنسبة لحواسك ، ثم هكذا بالنسبة لمالك .

المال من الذي منحك إياه؟. من الذي تفضل عليك به؟. من الذي خلق التربة وجعل فيها الخواص القابلة للإنبات؟. من الذي خلق هذه الأشجار التي نجني من ورائها مبالغ كبيرة من الأموال؟. نوفر بها كثيراً من متطلبات حياتنا ، من الذي منحها؟. أليس هو الله سبحانه وتعالى؟.

استح من الله أن تصرف ريالاً واحداً في معصية من معاصيه ، هذا كفر بنعمة الله كفر بالله، نعمته العظيمة التي أنعم بها عليك فجعلك منشرح الصدر بها ، قرير العين بها ، مطمئن النفس بها ، أنت مرتاح ، نفسك هادئة، فلوس متوفرة ، هذه النعمة العظيمة هي التي أضفت على روحيتك هذا الإطمئنان والشعور بالسكينة ، فاستح من الله أن تصرف ريالاً واحداً في الباطل ، استح من الله أن تصرف ريالاً واحداً في موقف تتحرك فيه من مواقف الباطل ، استح من إلهك الذي منحك هذه المبالغ الكبيرة ، وهي كلها نعمة لا تستطيع أنت أن تقول عن إحدى النعم أنها منك، لا تستطيع أبداً {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} (النحل: من الآية٥٣).

فإذا ما طلب منك أن تعطي مبلغاً زهيداً من هذا المال العظيم الذي منحك إياه تصرفه في سبيله فاستح إذا كان لديك مروءة ، وترعى الجميل ، وتقدر الإحسان ، وتشكر النعمة أن ترفض أن تعطي ألف ريال وهو الذي منحك مائة ألف ريال.

لو تتأمل ـ أيها الإخوة ـ فعلاً موقفنا من الله مع عظيم إنعامه علينا لوجدنا كيف نحن جديرين بقوله: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} (ابراهيم: من الآية٣٤) بهذه الصيغة {كَفَّارٌ} يكفر بالنعمة ، لا يرعى الجميل ، ولا يقدر الإحسان، ولا يشكر النعمة ، يعطيه مليون ويقول له: أخرج منها خمسة آلاف ريال في سبيل الله. يقول: الله كريم، ليس معي شيء ، لا أريد أن أصرف أموالي في أشرطة ، وفي كتب ، ومدرسين وطلاب ومدرسة.. وعبارات من هذه.

لسانك الذي وهبك الله وأنت تستطيع أن تعبر عن ما في نفسك تتكلم وتنطق ، انظر إلى الآخرين الذين لا يستطيعون أن يتحدثوا كيف تلمس بأنك في نعمة عظيمة ، أنك تتمكن من أن تنطق ، هذه النعمة استح من الله سبحانه وتعالى أن تستخدمها في القول بالباطل.

من علمك البيان بواسطة النطق أن تعرب عما في نفسك ، وأن تتحدث كما تريد مع الآخرين هذه نعمة عظيمة، أليست نعمة عظيمة؟. بلى. لا شك فيها. إذاً تذكر بأنها نعمة عظيمة عليك من الله سبحانه وتعالى فاستح من الله أن تكذب .

المسألة هي تفرض علينا أكثر من أن نمتنع لمجرد الخوف ، هذا هو عند ـ تقريباً ـ من لا يعقل ، المفروض أنه من البداية من باب الحياء من الله ، وشكر نعمته ، أستحي منه تقديراً لنعمه التي وهبني وشعوراً بعظيم إحسانه علي بهذه النعمة ، لا أستخدمها فيما يغضبه ، لا أستخدمها في الباطل، فلا تكذب، لا تغتاب، لا تسخر من الآخرين، لا تكن همازاً لمازاً ، لا تكن ممن يشهد زوراً ، لا تحلف بالله أيماناً فاجرة ، لا تؤيد باطلاً.. لاحظوا ما أكثر ما يمكن أن يستخدم الإنسان نعم الله في مجال معصيته؛ لأنه ظلوم كفار.

أنت عندما تحلف يميناً فاجرة تلك اليمين البالغة الخطورة التي هي من أقبح ما يصدر من الإنسان مع ربه ، لأنك تقسم بالله، أن القضية الفلانية كذا وكذا ، وأنت تعلم أنك كاذب، فبالله العظيم ، بربك العظيم ، تضفي على الباطل صبغة الحق، من التقول، من الإفتراء على الله سبحانه وتعالى ، أنت عندما تقول: أقسم بالله ، أو تقول: والله إنها كذا، وكذا، ماذا يعني هذا؟. أنت تمشّي المسألة وتحاول أن تقرر بأنها صحيحة بماذا؟. باستخدام عظمة الله في الموضوع ، فكأنك تجعل الله شهيداً ، تجعل الله وكيلاً ، تجعل الله كفيلاً على أن هذه القضية هي هكذا ، وأنت تعلم أنك كاذب، والله يعلم أنك كاذب ، فباسمه تأخذ حقوق الآخرين ، باسمه تظلم الآخرين.

الإنسان منا متى ما حصل منه أن يستخدم اسم شخص آخر ، إذا ذهب واحد إلى منطقة وقال: أنا ابن فلان وحصل لي كذا كذا، وأنا أريد [معونة] هذه قد تحصل من بعض الأشخاص ، أليس هذا يعتبر إساءة إليك؟.

أن يسير يطلب بعدما يحمل اسمك على أساس أن اسمك معروف في المنطقة تلك ، أو يسير الواحد عند الثاني يقول: قال فلان تعطيني مبلغ كذا قرضة وهو سيعطيك فيما بعد ، وأعطاك ، أليس باسمه أعطاك؟. ماذا سيقول هذا؟. أنك استخدمت مكانته فباسمه أخذت ما أخذت ، وباسمه كذبت على الآخرين ، وباسمه غششت الآخرين.

الله سبحانه الذي يريد منا أن يكون اسمه في نفوسنا مترسخاً في مشاعرنا هو الذي يدفعنا ، هو الذي يردعنا عن أن نتجاوز على الآخرين ، أن تتذكر الله كما قال في صفات المتقين: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ} (آل عمران: من الآية١٣٥) والله يريد منك أن يكون ذكره وأنت تتذكر اسمه لتنزجر عن ظلم الآخرين ، عن المعاصي ، فكيف تأتي وتستخدم اسمه في إنزاله على الباطل ، ولتنال به باطل ، أو تقرر به باطلا ، أليس هذا من السخرية بالله؟. أو تسخير لعظمة الله في إضفاء شرعية على الباطل.

ولهذا جاء في الحديث: ((أن اليمين الغموس ليس لها جزاء إلا جهنم)) ، وأن ((اليمين الغموس تذر الديار من أهلها بلاقع)) تتدهور أحوالهم ، والموت يفتك بهم وتصبح بيوتهم خاوية لماذا؟. لأنك باسم الله أضفيت على الباطل صبغة الحق ، والله يريد أن تكون باسمه ترتدع عن الباطل.

هذه واحدة من الإساءات البالغة التي قد تحصل منك باستخدام النعمة العظيمة التي وهبك الله إياها وأسبغ بها عليك ، نعمة النطق ، البيان ، الإعراب بالكلمات بالأحرف بواسطة لسانك وشفتيك.

أن تأتي لتشهد شهادة زور ، شهادة الزور هي نفس الشيء تشبه اليمين الفاجرة لأنك تقول: أشهد لله أن هذه القضية كذا وكذا، وهي ما أسوأها وما أقبحها، شهادة الزور، وهكذا كم سترى أن كثيراً من المعاصي يمكن أن تستخدم بواسطة النطق فتكون ممن سخر نعمة الله عليه في معصيته ، في ظلم الآخرين ، في أخذ حقوق الآخرين ، في الحط من مكانتهم ، في هتك أعراضهم ، في تأييد الباطل ، إذاً فاستحِ من الله ، وتذكَّر بأن هذه نعمة عظيمة أنعم بها عليك.

من هنا نعرف أهمية أن يذكّرنا الله وأن يطلب منا أن تتذكر نعمه العظيمة علينا لأن لها علاقة كبيرة بنا، باعتبار أنها هي الآليات التي بها نطيع وبها نعصي ، فمتى ما تذكّرنا أنها نعمة منه فإن هذا سيوجد في أنفسنا حياء من الله ، أن نتوقف عما طلب منا فيها ، أو أن ننطلق لاستخدامها في معاصيه.

من الأشياء التي يظهر بتذكر أن ما بين أيدينا هو من نعمة الله علينا كونها من مفردات هذا العالم الذي نحن خلفاء لله فيه.. لاحظ كم سيظهر من أثر كبير لتذكر نعمة الله ، أنت عندما تتقلب داخل مفردات وأجزاء هذا العالم فتصنع وتنتج وتبدع وتعمّر أشياء كثيرة ، إذا ما كنت متذكراً بأنها من نعمة الله ، إذا ما كان الناس متذكرين بأن هذه الأشياء هي من نعمة الله عليهم فإنهم سيخشون من الله وسيستحيون من الله ، أن تستخدم في معاصيه، أو أن تستخدم في الإضرار بالآخرين من عباده.

عندما انطلق الغربيون في التصنيع ، وفي استخدام المنتجات المتعددة في مختلف المجالات ، ألسنا نرى ما أكثر ما تستغل في الإفساد في الأرض ، وفي إفساد عباد الله وفي ظلم الناس؟. لو كانوا هم ممن يتذكر بأن ما بين أيديهم من طاقة ، ما بين أيديهم من آليات ، ما بين أيديهم من إمكانيات هي نعمة من نعم الله عليهم ، يتذكرون أنها نعمة لاستحوا من الله أن تستخدم فيما هو إفساد لعباده وإبعاد لعباده عن طاعته وعبادته ، فيصبح حينئذٍ تذكر أنها نعمة من الله يشكل ضمانة في تسيير كل هذه المسخرات في المجال الذي يريد الله سبحانه وتعالى ، في عمارة الأرض بالصلاح .

أن تتذكر بأن هذه نعم من الله سبحانه وتعالى عليك ، لا أن تراها وكأنها أشياء طبيعية ثابتة ، وكأنها هنا من زمان وهي على ما هي عليه ، لا تتذكر بأنها من الله هو الذي منحها ، كم سيفوتك من أشياء كثيرة مما يمكن أن تعطيه هي من معرفة الله ، وترسيخ معرفة الله سبحانه وتعالى فيما يتعلق بحكمته وقدرته ورعايته ولطفه ورحمته ، لا تستفيد منها هذه المعاني المهمة.

متى ما تذكرت أن كل ما أرى كلما أستمتع به في مختلف شؤون حياتي هو نعمة من الله سبحانه وتعالى ، وأرى من خلال آياته الكريمة أنه يريد مني أن أقدرها ، أن تكون ذات قيمة لدي ، ألم ينهنا عن التبذير؟. ألم ينهنا عن الإسراف؟. هو تنبيه على أنه ينبغي أن يكون لهذه الأشياء قيمة لديكم ، هي ذات قيمة ، فإذا ما نظرت

إليها كذات قيمة مصاحب هذا الشعور للشعور والتذكر بأنها نعمة من الله سبحانه وتعالى عليك ، نعمة على الناس جميعاً ، فإن هذا هو ما يساعد على أن تتأمل في ما تعطيه هي من معارف ، في كونها من مظاهر قدرة الله ، في كونها من مظاهر رحمة الله ، في كونها من مظاهر رعاية الله فيترسخ ويزداد إيمانك كثيراً بالله سبحانه وتعالى وتعظم ثقتك به.

والموضوع من أساسه هو الحديث عن كيف نثق بالله. أليس هو هذا الموضوع؟. هو كيف نثق بالله سبحانه وتعالى؟. تدلنا هذه على أن من فعلها هو عظيم الرعاية لنا، عظيم الإحسان إلينا ، حكيم في تدبيره ، فما وجهنا إليه، وما أرشدنا إليه، لا يمكن أن يكون فيه مجازفة ، ولا خطر ، ولا ورطة لنا ، ولا تصرف أحمق، هو حكيم فيساعدك تذكر أن ما بين يديك من نعمة الله يساعدك على تكرير التأمل فيها لكونها ذات قيمة لديك ، قيمة في واقع الحياة باعتبارها مما تمس الحاجة إليه في مختلف شؤون الحياة بالنسبة للناس جميعاً ، مما لا تستقيم الحياة إلا بها فتزداد ثقتك بالله سبحانه تعالى وتعظم ثقتك به ، ومتى ما عظمت ثقتك بالله انطلقت في كل ما وجهك إليه ، لأنك واثق بأنه رحيم ، أنه يرعى ، أنه حكيم ، أنه قدير ، فكيف لا أثق به؟.

هذا فيما يتعلق بالتذكير بنعم الله فيما بيننا وبين الله ، لكن لماذا منع الإنسان من أن يستخدم نفس الأسلوب فيما يعطي مع الآخرين؟؟.لماذا منع؟. أليس المنّ هو من المعاصي؟. أن تمنّ بما تعطي يعني هذا أن تحبط كل ما كان يمكن أن تحصل عليه من الأجر مما أعطيت، إبطال له: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً} (البقرة: من الآية٢٦٤) أملس كصخرة كان عليها قليل تراب جاء وابل المطر فتركها ملساء.. هذا الإبطال ينهى العمل بالمرة.

ولما كان المال أو النعم بصورة عامة سواء كانت نعم معنوية، أو نعم مادية، لها أثر عاطفي في نفس الإنسان يشده إلى الطرف الذي منحه هذه النعمة ، إلى من أسدى إليه هذا المعروف يشده نحوه ، كانت النعم فيما يتعلق بعلاقتنا بالله سبحانه وتعالى ذات تأثير كبير فيما إذا تذكرنا أنها نعمة، هي مربوطة بالتذكر {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} (الضحى:١١) بالتذكر ، أما إذا كنا ناسين للنعم هذه فلا تعطينا أي معنى من المعاني، أنها تشدنا عاطفياً نحو الله سبحانه وتعالى.

لكن إذا كان للمال أثره العاطفي، إذا كان للنعم أثرها العاطفي، والقاسم المشترك ـ ما بين تعامل الله مع الإنسان على هذا النحو وفيما يتعامل الناس مع بعضهم بعض ـ هو الجانب العاطفي ، فهو بالنسبة لله مضمون ، وبالنسبة لله سبحانه وتعالى إيجابي متكامل ، متى انشديت إليه كلما كان إنشدادك إليه في صالحك وتكريم لك وتعظيم لك، هو تكامل فيك ، وسمو لروحيتك ، وطهارة لنفسك ، وتعطي ما تحدثنا عنه سابقاً.

لكن بالنسبة للإنسان ماذا سيحدث؟. بالطبع لو بقي المجال مفتوحاً فيما بين الناس أنه على كل واحد أن يتذكر ما أعطى إليه الآخر فيقابله بنفس الشعور ، ويقف منه نفس الموقف الذي يقفه ويشعر به مع الله سبحانه وتعالى فيما أعطاه من نعم، لو كان المجال مفتوحاً على هذا النحو لكان فيه خطورة بالغة وهو أن كثيراً من أصحاب الأموال، كثيراً من أهل الباطل أليسوا سيسيرون الباطل بأعمال من هذا النوع ؟ إحسان وبذل المال وتسهيلات معينة ، وبذل معروف؟. نعم ـ إن صح التعبير ـ أليس هذا هو ما يستخدمونه؟.

فمن اللازم للتأثير السلبي لهذه القضية إذا ما كانت مفتوحة ـ أن يبعد الجانب الفكري الثقافي الديني بالنسبة للإنسان عن أن يخضع للتأثير المادية ، إذا أبعد الجانب الديني والثقافي، الفكري، التوجهات، المواقف، تبعد عن الجانب المادي وعن تأثيرات ما تتركه المادة من عواطف ومشاعر في النفس تشد نحو من يسديها ؛ لأن المادة ـ سواء كانت أموالاً نقدية، أو كيف ما كانت ـ هي سلاح ذو حدين ، لها أثر كبير في الجانب الإيجابي ، ولها أثر كبير في الجانب السلبي ، حتى المؤمنين نهو عن هذا ، إقفالاً للموضوع من أساسه ، نهو عن المنّ ، والمنّ الذي يعني التذكير بما أسديت للآخرين [أنا عملت لك كذا وعملت لك كذا، وأنا كذا] تريد من وراء ذلك إخضاع مشاعره وعواطفه مواقفه بالشكل الذي يستجيب لما أردت من وراء إعطائك ذلك المال أو وقوفك معه ذلك الموقف الذي تعتبره نعمة منك عليه ، هذا يتنافى مع كرامة الإنسان.

أن يشدني الله سبحانه إليه من خلال تذكيري بما أنعم علي من النعم العظيمة هو شدي إلى الكامل المطلق إلى الكمال، إلى من يعتبر ارتباطي به وقربي منه تكريماً لي.. لكن لاحظ كيف يكون بالعكس فيما يتعلق بالناس فيما بينهم ، كيف يشعر الإنسان بالضعة ، يشعر بثقل، بوطأة معروف معين أسدي إليه على نفسه ، وصاحبه يكرر [أنا عملت لك كذا ، أنا سويت لك كذا...]إلى آخره.

ولذا تلاحظوا أنه حتى المؤمنين نهو عن المنّ ، وجعل المنّ مما يبطل أثر الصدقة. وحكم القضية بالنسبة للمعطي ـ إذا كان يريد أن يكون لعطائه أثر ـ هو أن يبتغي به وجه الله {لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً}(الانسان: من الآية٩) بحيث لا يشعر الطرف الآخر بأنه يراد مني من وراء ما أعطى استغلال عواطفي نحوه ، فهذا أشبه شيء بمن يعطي رياء مثلما قال: {كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ}(البقرة: من الآية٢٦٤){لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً} {وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى} (الليل:١٩-٢٠) .

أو أقل شيء إذا لم يكن الإنسان متذكراً لهذه الأشياء مثلما يحصل ربما للكثير الكثير من البشر فأن يكون من منطلق إنساني بحت ، أو منطلق المكافئة المتبادلة فيما بين الناس ، من باب {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} (الرحمن:٦٠).

أن نرسخ في المجتمع ـ من خلال المنّ بما نعطي ـ نرسخ في المجتمع إخضاع العواطف للتأثيرات المادية هذه سيظهر لها سلبيتها الكبيرة حتى وإن كنا مؤمنين، نحن قد لا نستخدم العواطف التي قد يتركها ما نعطي في هذا الشخص، قد لا نستخدمها في جانب الباطل، لكن المنّ الذي يعني التذكير واستغلال العواطف وإشعار الآخر بأن عليه أن يسير كما أريد ، ترسيخه يصبح مما يعرِّض المجتمع لخطورة بالغة بالنسبة لأهل الباطل ، فيأتوا ليدفعوا أموالاً أكثر منك ، ويستخدموا نفس الأسلوب في التذكير بما أعطوا ، ويعرضوا للآخرين منجزاتهم فيما أنجزوه في مجال كذا وكذا وكذا ، فتصبح ذهنيتنا ـ بحكم أننا قد عودناها على أن تسير خلف من يسدي إليها معروفاً ـ فتصبح معرضة لأن تدفع بالإنسان إلى أن يقف المواقف الباطلة ، ويؤيد الباطل ، ويدخل في الباطل.

والحقيقة أنه لا يمكن أن تستخدم المادة ، أو أن يضحى بالقيم ، بالدين في مقابل المادة ، بل العكس هو المطلوب من الإنسان {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ}(التوبة: من الآية١١١) بين حالة المقارنة بين المادات والقيم والمبادئ الدينية يضحي بالماديات حتى وإن كانت أغلى الماديات لديك التي هي روحك وجسمك بكله تضحي به من أجل الدين ، ولا أن تبيع الدين في مقابل المادة ، لا في مقابل ما تحصل عليه من مصلحة لنفسك أنت ، ولا من باب مراعاة مصالح الآخرين ، إذا كان هناك مثلاً شخصيات لها مصالح من جهة معينة وعمل معين يقولون: يا جماعة أنتم ستؤثرون على مصالحنا ، نحن معنا كذا وكذا وليس لكم حق أن تأثروا على مصالحنا؛ لأن هذا يؤدي إلى قطع معاشاتنا أو مساعدات معينة. قل له: نحن شخصياً ألزمنا بأن نضحي بأموالنا من أجل دين الله ، فكيف نراعي مصالحك أنت ونؤثرها على دين الله ، وأنت ممن يلزمه أن يضحي بمصالحه من أجل دين الله!.

لهذا نلحظ كيف أنه لا يجوز إطلاقاً أن يتحدث بعضنا مع بعض من باب المن بما أعطى ؛ لأنك تربي المجتمع على أن تسخر عواطفه للباطل ، فيظهر هذا ويقول صاحب المنجزات العظيمة ونحن ونحن..إلخ، وأنا قد ربيتك من قبل ، وأنا أتحدث معك: [يا أخي أنت تعلم أني قد أعطيتك كذا وكذا وأنت تعلم أننا فعلنا كذا. فتقول: والله صحيح ولا يهمك أبشر] .

أليست هذه واحدة ، ألست أنت تقوده بعواطفه؟. سيقوده الآخرون بهذه العواطف ، فنهى حتى المؤمنين لأن هذا سيرسخ في المجتمع تربية لأن ينقاد وراء العواطف التي قد تخلقها التأثيرات المادية ، وهذا من أخطر ما يضرب الأمة ، تصبح المقاييس مادية كلها ، بدل أن تكون كما قال الإمام الخميني رحمة الله عليه معايير إلهية هو قال: (يجب علينا أن تكون معاييرنا إلهية) أي المقاييس التي من خلالها نتعامل مع الآخرين أو نقف مع الآخرين إلهية وليست مادية ، أن أراك ممن يجوز لي أن أقف معك في موقفك فأؤيدك باعتبار موقفك حق أأيدك ، لكن أن آخذ منك مبلغ من المال فأؤيدك ، أو تسدي إلي معروفاً معيناً فأؤيدك وأنت على باطل ، هذا مما يعني أنني جعلت

المقياس في تعاملي مع الآخرين في أن أقف معهم أن أؤيدهم أن أشاركهم في أعمالهم ، هو ما يكون هناك من عائدات مادية.

وهذه خطورة بالغة لأن الباطل يستخدم المال ، المال هو وسيلة يستخدمه الحق ويستخدمه الباطل ، فأنت ملزم بأن تنفق مالك في سبيل الله، لأن الحق لا بد من بذل المال في سبيله ، وأهل الباطل يعلمون ويتأكدون بأن الباطل لا يسير إلا بواسطة المال إذاً فالمال هو سلاح ذو حدين ، فلهذا يجب على الإنسان أن ينظر إلى الأشياء معتمداً على مقاييس إلهية وليس من خلال الماديات.

فرعون الذي ذكر الله سبحانه وتعالى قصته في القرآن من أول من استخدم هذا الأسلوب {أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ} (الزخرف:٥١ـ٥٤)

المقاييس لديهم مادية ، أساور من ذهب رأوا فيها عظمة فرعون ، وموسى رجل لا يملك هذه. وهكذا أنهار هنا ولا يعرفون أنهار الحق هناك ، وأنهار العزة والشرف ، أنهار القيم المثلى. استخف فرعون قومه في مقابل موسى (عليه السلام) الذي هو نبي من أنبياء الله ويملك عشر آيات بينات رأوها هم وعايشوها هم ، لتعرف كم هي الخطورة شديدة جداً إذا ما انطلق الناس لينظروا نحو الأشياء وفق مقاييس مادية ، إن نبي الله موسى (عليه السلام) كان يمتلك آيات بينات وعايشوها هم الفراعنة وأهل مصر: الدم والضفادع والقمل والجراد هذا مما كانوا يعانون منها حتى طلبوا من موسى (عليه السلام) أن يدعو الله أن يرفعها عنهم وأنهم سيؤمنون به وسيطلقون معه بني إسرائيل ، ليست المسألة أنهم لم يعرفوا شيئاً ، لكن نسوا مسألة أن لا ينظروا إلى الأشياء فتكون لها قيمة من خلال الماديات ، استطاع فرعون أن يخدعهم؛ لأنهم كانوا قوماً فاسقين ، يهمهم مصالح أنفسهم يهمهم مادياتهم ومشاريع وخدمات فليكن فرعون في مقابل موسى لا توجد مشكلة.

هذا كإتمام للموضوع الذي ذكرناه بالأمس ، يمكن أنه بقي نقطة واحدة هي حول ما في التذكير للإنسان بنعمة الله عليه في أن ينظر أن كل ما بين يديه هو نعمة من الله وأنها ذات قيمة هي نفسها مما تساعد على التفكير فيها كما قال سابقاً {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (الرعد: من الآية٣) بعدما قال تعالى {وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (النحل: من الآية١٤) {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (الجاثية:١٣)

فينطلق الناس وهم يرون أن كل ما بين أيديهم له قيمته ، أن يرتبط بمسئوليتهم كخلفاء لله في الأرض ، ومتذكرين أنها نعمة من نعم الله. فهذا هو نفسه من إحدى الدوافع بالإنسان إلى أن يغوص في أعماق مفردات هذا العالم فيبدع ، وينتج ، ويصنع ، ويكتشف الأسرار التي أودعها الله في هذا العالم.

من هنا نعرف كم هو الفارق بين ما تعطيه هذه الآيات وبين من ينطلقون فيتحدثون مع الناس ويعظونهم بالزهد في الدنيا ، وأن النظر إلى الدنيا يجب أن يكون نظر من يرفضها ولا قيمة لها وأنها غرارة خداعة مكارة ، واتركها ، ويسمح لك فقط من أطرافها ، ولا تأخذ إلا الكفاية منها فقط. أن هذا نفسه من إحدى العوامل التي ضربت المسلمين فجعلتهم بعيدين عن أن يستخدموا ما سخر الله لهم في السموات وفي الأرض ، وأن يتفكروا فيها؛ لأنها أصبحت ليست ذات قيمة لديهم ، ليست ذات قيمة، هي كلها لا تساوي جناح بعوضة ، بينما الله يذكّرنا أن ننظر إليها كذات قيمة، ولها قيمة.

وعرف الآخرون كيف أن لها قيمة، الرجال عرفوا كيف أن لها قيمة. بل حتى الأشياء التي نكمم أنوفنا عندما نمر من عندها يعرفون أنها أيضاً لها قيمة ، كيف هم يستخدمون المجاري بمحطات تصفية فيستخرجون منها الأسمدة ، ويستخرجون أيضاً الماء من جديد نقياً فيعاد لسقي الأرض من الحدائق والبساتين والمزارع ، وأسمدة تباع بملايين الدولارات .

ونحن نقول عنها كلها: غرارة خداعة مكارة من أولها إلى آخرها ، حتى أصبحنا لا نملك شيئاً ولا نعرف شيئاً، ثم أصبحنا عبيداً لأولئك الذين تفكروا {لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} نحن قوم نجهل ، وأولئك قوم تفكروا فأبدعوا.

نعرف في نفس الوقت من خلال ما عرفنا أن المسألة ليست سوياً فيما يسديه الله سبحانه من نعم إلى الإنسان ، وفيما يحصل فيما بين الناس مع بعضهم البعض قد ظهر أن المسألة ليست سوياً ، بينما نجد أن أول خطوة خطاها المعتزلة في مجال معرفة الله: أنهم اعتمدوا على قاعدة باطلة من أساسها ، هو أنهم نظروا أولاً فيما يحصل بيننا نحن الناس، أن هذا عندما يعطي هذا يجب عليه أن يشكره ، إذاً فهناك نعم ننطلق منها لنشكر الذي أسداها.

ألم يسوغوا للمسألة ، ما الذي حصل؟. نحن قلنا: القاسم المشترك هو الجانب العاطفي لكن أن تنظر إلى المسألة كأنها سوياً فتأتي لتقيس ـ على ما قالوا ـ الغائب على الشاهد. الشاهد هو الإنسان وهذه الصورة الكاملة للتعامل فيما بيننا التي تعطي حكماً عقلياً ـ كما يقولون ـ بأنه يجب شكر المنعم، إذاً فننطلق منها لنقيس عليها تعاملنا مع من أسدى إلينا نعماً من جانب هذه النعم التي لم ندر بعد من أين هي ، فنبحث عمن أسداها ، فكانت هذه هي أول خطوة التي بنوا عليها وجوب النظر في معرفة من أسدى إلينا هذه النعم لنشكره.

ما الخلل في هذه؟. هو ترسيخ حالة التسوية مع أن القرآن بيَّن أن المسالة ليست سوية، ليس هناك مجال للمقايسة إلا في ما يتعلق بالجانب العاطفي بأن سنن الله سبحانه وتعالى في الهداية استغلت الجانب العاطفي في المسألة، في خلق الشد للإنسان نحو الله، ولاعتبارات متعددة هي التي ذكرناها سابقاً فيما يتعلق بنظرته إلى ما بين يديه كنعم منه تعالى ، فيأتي الشكر واحدة من الغايات {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}(النحل: من الآية١٤) ألم يأت الشكر واحدة منها؟.

فهم رسخوا هذه المسألة أن ننطلق منا، نحن الناس فنعتبر القضايا العقلية من خلال التعامل فيما بيننا مع بعضنا البعض هي الأساس الذي نقيس عليه تعاملنا مع الله، فحصل أخطاء كثيرة. ألم نجد الفارق كبيراً؟. أنه ليس صحيحاً أنني أرى أن الله سبحانه وتعالى يذكّر من أعطاهم بنعمه فأنطلق أنا لأذكّر الآخرين الذين أعطيتهم بنعمي ، فأقول أتخلق بأخلاق الله، وأسير على منهج الله، وأعمل مثله. لا. أقفل هذا الموضوع تماماً ، أقفل هذا الموضوع تماماً.

بينما قد يكون أساس المسألة هو أن الناس في تعاملهم الطبيعي خاصة من لم يربوا تربية إلهية في الإبتعاد عن المنّ على بعضهم بعض ، ألم يكن هذا هو السلوك الطبيعي لدى الناس؟. إذاً الإنطلاقة نحو الله على أساس هذا السلوك الذي هو قائم بين الناس إتضح بأنه فقط استخدام الجانب العاطفي، وأن ما نحن عليه هو خطأ ، هو خطأ يجب أن يلغى المنّ بما أعطيت تماماً ، ويجب عليك فيما إذا أعطيت من جانب أن لا يسيرك عطاؤه إياك فيسير عواطفك كيفما يريد. بل ورد في الأدعية أنه مطلوب أن الإنسان يدعو الله سبحانه وتعالى أن لا يجعل لكافر ولا لفاسق عليه نعمة وفي دعاء الإمام زين العابدين: ((اللهم ولا تجعل لفاسق ولا لكافر علي نعمة ترزقه من قلبي بها مودة)) ،لماذا؟ لأن الإحسان يعمل عمله.

الحاكم أو الذي يلي أمراً من أمور الناس نهي أيضاً عن أن يجيب حتى دعوة ضيافة ؛ لأن الإحسان يؤثر فيؤدي إلى تسخير عواطفه مع من أسدى إليه إحسانا، نهي الناس عن هذا، وأذكر فيما روي أن الإمام عليا (عليه السلام) دعا وهو عند رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) أن الله لا يحوجه إلى أحد من خلقه، فقال ـ في معنى الحديث ـ لا تقل هكذا فليس أحد من الناس إلا وهو محتاج إلى غيره أو إلى خلقه ولكن قل: ((اللهم لا تحوجني إلى شرار خلقك)). أن أحتاج إلى شرار خلق الله فيعطيني هو أو أقبل عطيته فيؤثر على عواطفي فيشكل ضغطاً علي في مواقفي الدينية، فحاول أن تبتعد عن أن يكون لفاجر تأثير على عواطفك.

هذا فيما يتعلق بنعمة الله سبحانه وتعالى ويمكن أن نستكمل الموضوع إن شاء الله فيما بعد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

[الله أكبر / الموت لأمريكا / الموت لإسرائيل/ اللعنة على اليهود / النصر للإسلام]

تم هذا الإخراج الجديد
بإشراف
يحيى قاسم أبو عواضة
بتاريخ ١/ رمضان ١٤٢٧ هـ
الموافق ٢٣ / ٩ / ٢٠٠٦ م